واحة تبوك

"ماذا تبوكون ؟ (أي ما الذي تدخلون فيه السهم وتحركونه ليخرج ماؤه؟)" يُروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد سأل هذا السؤال لأصحابه عندما رآهم -أثناء مروره- منكبين بهمة ونشاط على حفر وإبعاد الرمل الذي تجمع فوق العين الكبيرة التي كانت وما تزال يعتمد عليها الجزء الرئيس من الواحة لبقائه في الوجود.

ومن هنا اشتق اسم "تبوك" حسب ما قالَ لنا السكانُ المحليون اليوم. وهذا إن لم يكن حقيقياً أو صادقاً إلا أنه قد يكون تفسيراً مقبولاً[1]. إن ألويس موسل المكتشف النمساوي الشهير لشمال الجزيرة العربية، وهو رجل ذو علم واطلاع عظيم، يأخذ اسم تبوك، وبقدر من المعقولية، من الاسم الذي ذكره بطليموس "تباوا" حيث يقول: "من تبك (تباوا)، عن طريق قريّة (أوستاما) وربما يمتد أقصر طرق النقل وأكثرها سهولة من جنوب الجزيرة

---

(١) الصحيح أن اسم تبوك ورد في حديث معاذ عن المصطفى ﷺ قبل غزوة تبوك في حديث طويل، قال معاذ: «قال ﷺ: إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ..». الحديث، انظره في صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ.

ومن هذا يستدل على أن التسمية قديمة وقد وردت في كثير من النقوش العربية قبل الإسلام.

العربية حتى البتراء عاصمة الأنباط. ومن المؤكد أن تبوك كانت من أقدم العصور محطة هامة على طريق الشمال - الجنوب الرئيس، الذي كانت تمر عبره التوابل القادمة من الجنوب إلى عالم البحر المتوسط، وينزل الحجاج من هناك إلى مدن الإسلام المقدسة. ولا بد أن الأنباط قد استفادوا منها واستخدموها في توسيع امبراطوريتهم حتى مدائن صالح وأبعد منها في الجنوب. كما أن الإبل التي كانت تسلك هذا الطريق منذ البداية حتى أول هذا القرن الحالي ولم يحل محلها ناقل إلا خط سكة حديد الحجاز منذ أكثر من عقد من الزمان بقليل، وهذه كانت أول حادثة تؤثر في الجزيرة العربية نتيجة للحرب العالمية الأولى.

وقد استأنفت الإبل مهمتها القديمة حتى، بعد ضم السعوديين للحجاز ولم تتحرر من ابتلاءاتها نهائياً مرة أخرى إلا بواسطة السيارات، التي احتكرت منذ وقت طويل نقل البضائع بين الشام والمدينة. وقد وجدت كل أنواع النقل أنه لا غنى لها عن تبوك حتى تحقق كفاءتها وسلامتها، ولم تكن تبوك لتظهر إلى حيّز الوجود لولا الينبوع العظيم الذي يتدفق بسخاء من باطن الأرض تحت ظلال نخلها الباسق الخلاّب.

وبالمناسبة ربما أن الحديث المتكرر مدة ثلاثين عاماً عن إعادة الحياة لخط سكة حديد الحجاز سوف يفسح المجال قريباً للعمل الحقيقي في إصلاح الخط وإعادة تجهيزه بالمعدات، على الرغم من أنه لا يزال من السابق لأوانه أن يتفاءل المرء حقيقة، لأن المرحلة الحالية من المشروع قد خضعت للمناقشة فعلاً مدة ثلاث سنوات تقريباً. وفي يوم من

الأيام بلا ريب سوف تتحقق المعجزة، مثلما يتمنى كل إنسان، وعندها سوف تبدأ تبوك في تجربة عهدٍ من الرخاء والازدهار لم تشهده أبداً من قبل على مر العصور.

وأحوال تبوك الاقتصادية والاجتماعية الحالية تشهد فعلاً تقدماً في كل شيء عرفته العهود الحديثة، بعدد سكانها البالغ (في ١٩٥١م) حوالي ٢٠٠٠ نسمة، نصفهم تقريباً يمثلون المسؤولين والتجار المهاجرين من نجد والحجاز. وقبل زيارتي لها بقرن من الزمان جاءها أوغسطس فالن الذي يحتمل أن يكون أول زائر أوروبي لهذه المنطقة، ووجدها قرية لا يتعدى عدد منازلها ستين منزلاً فقط، ولم يجد داوتي في ١٨٧٧م إلا أربعين أسرة " لا يحميها من طغيان البدو إلا قلعة صغيرة".

وبعد ذلك بسبع سنوات وجدها هوبر قفراً مهجوراً، والقلعة يحتلها خمسة من رجال الدرك فقط. وفي عام ١٩١٠م عندما كان خط السكة الحديدية ممتداً حتى هذه النقطة ولا يتعداها قدّر كاروثرز عدد السكان بحوالي مائتي نسمة، ولا ريب أن العدد قد زاد بصورة كبيرة عندما كان الخط يعمل بكامل طاقته حتى المدينة، ولم ينخفض العدد إلا خلال الحرب وما بعدها حتى حلول الإدارة السعودية ممثلة بشخص الأمير عبد الله السديري (أمير المدينة الآن)، الذي خلفه بعد حين، في ١٩٤٧م، ابن عمه خالد، الذي ظل في منصبه حتى ١٩٥٦م. وله، بصورة رئيسة، تدين تبوك بحالة الازدهار النسبي التي تشهدها حالياً.

إن خالد السديري، كما ذكرت من قبل، قد استُدعيَ للتعامل مع الأزمة التي نشأت في تيماء على أثر اغتيال عبد الكريم في أكتوبر الماضي، وقد تابعت في الآونة الأخيرة أثر مسار سياراته المتجهة للرياض للتشاور مع الملك. وقد حل محله أمين سره، علي ثروت، في تنفيذ الإدارة ويقوم بتشريفات الإمارة بشكل عام، وهو رجل ذو سحر عظيم وكفاءة واضحة، وعندي سبب وجيه للشعور بالامتنان لكريم تعاونه المثمر خلال إقامتي المؤقتة كلها وفي جولاتي بالمنطقة المجاورة. لقد كان أيضاً شخصاً دمث الأخلاق، لطيف المعشر، عذب الحديث، ولديه شيء من الاهتمامات الفكرية التي تتجاوز نطاق عمله الرسمي.

والمبنى الحكومي الجديد، المشيّد بطريقة قوية من الخرسانة المسلحة والجدران ذات السمك العظيم، لم يكتمل إلا حديثاً، وكنت في الحقيقة أول زائر تطأ قدماه المبنى ويقيم فيه؛ إنه في الواقع منزل ريفي من طابق واحد شديد الاتساع، لم يخصص فقط لاستقبال ضيوف الحكومة، بل أيضاً لتوفير مكاتب لموظفي الأمير، وقاعة اجتماعات رسمية للمناسبات الملائمة. وكانت هذه غرفة هائلة، طولها ثمانية عشر متراً وعرضها ستة أمتار، مفروشة بالسجاد الذي يبعث بالدفء والأثاث الرائع نسبياً من الكراسي ذوات الذراعين الثقيلة المغطاة بقماش مخملي والمرصوصة على طول ثلاثة من الجدران، وبعض الكراسي قاعها من الخيزران، وبعض الطاولات الصغيرة والأشياء الإضافية الأخرى. هنا كنا نتناول طعامنا، على الأرض حسب الطريقة العربية، ولقد كان طعاماً شهياً جداً حسبما اكتشفنا

ذلك في ليلة وصولنا، عندما دعا علي ثروت كلاً من رئيس موظفي عوائد المنطقة، ومدير الشرطة، مع عدد من المسؤولين الآخرين، لمقابلتنا.

وكانت غرفتي أيضاً ملكيّة فخمة في أبعادها، على الرغم من أن الأثاث الكثير والكراسي ذوات الذراعين وطاولة المكتب الأنيقة كانت تبدو أنها تملأ الغرفة بدرجة كافية. ولا أذكر إن كان هناك سرير أم لا، ولكنني نمت على الأرض في فراشي الذي أستخدمه في البر، وكانت كل نافذة وأقفالها مغلقة بإحكام، وكان الجو داخل الغرفة باردا مثل الثلج، شديد البرودة حتى إنني في الحقيقة فتحت عدة نوافذ في تلك الليلة ليدخل هواء الشتاء الدافئ من الخارج، حيث كانت درجات الحرارة تبدو تلك الأيام بمعدل حوالي ٥٠ درجة فهرنهايت.

وخلال فترة الأصيل (بعد الظهر) أخذني علي في جولة بالسيارة داخل الواحة وحولها لكي أحصل على فكرة عامة عن معالمها الرئيسة، وكان أكثر هذه المعالم إثارة للدهشة هَذا العَدد الكبير من أشجار الكافور النامية في كثير من مجمعات القرية. وقد تم استيرادها للاستزراع في عصور حديثة نسبياً كجزءٍ من حملة رسمية لمكافحة الملاريا التي كانت متفشية ذات يوم في الواحة، وكنت أميل إلى الاعتقاد بأنه في الحقيقة كان هناك انخفاض عظيم في حدوث المرض، إن لم نقل اختفاءه بالكامل.

وكانت عين السكر وقلعة الحاج تطلان عليها من أحد الجوانب، وهما الأثران الرئيسان في تبوك، وخلال مدة إقامتي أتيحت لي

الكثير من الفرص لفحصهما بالتفصيل. وتتدفق العين نفسها في بركة صغيرة نسبياً ومحاطة بسور من الحجر بارتفاع الكتف، ومحيطه حوالي ١٠٠ قدم وسمكه ياردة واحدة. وهذا السور الدائري ينقطع في الجهة الغربية بفتحةٍ تبلغ ثلاثين قدماً تسمح للماء الفائض بأن يتدفق إلى خزان تهريب، مساحته ثلاثون قدماً مربعاً ومسوّر من جميع الجوانب، ومنه يمر الماء إلى بساتين النخيل على طول قناةٍ مصنوعةٍ بطريقة مهملة من جهته الغربية.

وفي الناحية الشمالية من البركة الرئيسة يتلاصق معها خزان على هيئة مربع مساحتهُ ثلاثون قدماً تقريباً، والجهة الجنوبية منه هي السور المنحني للبركة نفسها. هذا الخزان مخصص لسحب مياه الشرب، ويبدو أيضاً أنه يستخدم لري النخيل. وكانت هذه المجموعة من المنشآت والترتيبات كلها لاستقبال المياه، وتوزيعها في القرية. والواحة تبدو إلى حد ما غير نظيفة ومهملة، ومبنية بطريقة غير منظمة، لم يكن هناكَ اهتمام خاص بنظافة المنطقة، وكان من الواضح أن تجديد العين على النسق العصري سيأتي بفائدة عظيمة للسكان. وبالإضافة إلى هذه العين تضم الواحة آباراً كثيرة ذات مياه بعمق ثلاث أو أربع قامات لري النخيل وحقول الذرة الواسعة نسبياً في خارجها.

وبالمقابل كانت البئر عند المحطة، على بعد أقل من ميل، لا تقل عن ثلاث عشرة قامة طبقاً لما قسته أنا بنفسي من السطح حتى مستوى الماء، وتوجد عيون أخرى في منطقة تبوك، سوف نذكرها في حينها، بيد أن الصفة المشتركة بينهما جميعاً، كما في العين الموجودة

بالواحة الرئيسة أيضاً، هي أنها تنبع من مرتفع مستدير من الأرض ومنها ينساب الماء بشكل طبيعي إلى المناطق الصالحة للزراعة. ويبدو أن الضغط القديم في باطن الأرض، الذي كان يقذف بالحمم البركانية في المنطقة البركانية المجاورة بعيداً من خلال العشرات من فوهاتها، لا يزال قوياً حتى الآن بدرجة كافية لدفع المياه الجوفية في الحوض إلى السطح من خلال التشققات في القشرة الأرضية المكوّنة من الحجر الرملي على الرغم من الطبقات الرملية والطينية العلوية الثقيلة التي صبتها أودية حسْمى عليها عبر القرون. إن الإهمال العادي علاوة على الاضطرابات القبلية المتقطعة، كانا من حين لآخر مسؤولين عن أفول نجم بعض هذه العيون، ولكن السياسة القوية التي التزمها خالد السديري كانت تؤتي ثمارها بسرعة في إعادة المنطقة إلى كامل طاقتها من الري. كما أنه هو نفسه قد اشترى في هذا الوقت نصف حصة في العين والحديقة المعروفين باسم بستان حرب أي من أملاك حرب وهو والد عيد الشيخ الحالي لبني عطية، وعندما زرت تبوك مرة أخرى بعد ذلك بعامين كانت الملكية كلها في يده، وكانت القطعة على وشك أن تصبح مزرعة نموذجية على الرغم من طوفان الجراد شديد الوطأة الذي يلم بها. وعلى عكس الكثير من معاصريه كان لديه اعتقاد راسخ بضرورة استخدام طعم مسموم لمواجهة هجمات الجراد على المحاصيل الزراعية النامية، كما كان مقتنعاً بأن معظم هذه الحشرات تفضل النخالة المسمومة لطعامها العادي.

وعلى مقربة من عين السِّكر من جهتها الشرقية، كانت تنتصب قلعة الحاج وهي حصن مشيّد بطريقة حسنة من البناء، ومصمم

لحماية إمداد المياه وقوافل الحج التي تنصب خيامها في المنطقة وهي في طريقها إلى ومن المدينة. وليس من شك في أنه كانت هناك قلعة من نوع ما في هذا الموقع النفيس منذ العصور الغابرة، ولكن المبنى الحالي، بخطوطه الرئيسة، يبدو أنه يعود إلى عام ١٠٦٤ هجرية (١٦٥٣ - ١٦٥٤ ميلادية) طبقاً لما هو مذكور في النقش باللغة العربية على لوحة من الخزف الأزرق المزخرف على المدخل الرئيس، والتي تقول: (أمرَ بتجديد وتعمير هذه القلعة المباركة حضرة مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان أحمد خان بن عثمان خلد الله ملكه طول الزمان، وتشرف بمباشرة خدمتها العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن الناشف التذكرجي بدمشق الشام غفر الله له في سنة أربع وستين وألف ١٠٦٤هـ)[1].

وكان السلطان محمد الرابع، ابن السلطان إبراهيم، الذي كان ابن السلطان أحمد الأول -وهذا الاسم الأخير كان مفقوداً من النقش نتيجة اختفاء بلاطة وضياعها-، قد جلس على العرش العثماني في عام ١٠٥٨ هجرية (١٦٤٧ - ١٦٤٨ ميلادية)، وهو طفل قاصر، عمره سبعة أعوام، وظل حاكماً حتى ١٠٩٩ هجرية (١٦٨٧ - ١٦٨٨ ميلادية)، عندما تنازل عن العرش، ولا نستطيع

(١) نقل نص هذه القلعة من كتاب: شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مدخل عام، ط١، الرياض، مطابع سفير، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، حتى ١٥١-١٥٤. كما ذكر النص أيضاً إبراهيم الخياري المدني الذي زار تبوك عام ١٠٨٠هـ وقرأ النص، ونقله عنه حمد الجاسر في شمال غرب الجزيرة، ص٤٤٢.

أن نحدد على وجه الدقة اسم المهندس المعماري الذي بناه، حيث إن اسم والده مفقود بسبب عيب في اللوحة. ومن الواضح أن محمد الرابع كان مشهوراً بأنه صياد شجاع وماهر. وهكذا يبلغ عمر المبنى ٣٠٠ عام فقط بشكله الحالي، وقد فشلت بكل تأكيد في اكتشاف أي دليل مؤكد أن جزءاً من أجزائه، -حتى ولو أساساته- كان أكثر قدماً من ذلك.

إن البناء رائع شديد الروعة، وهذه اللوحة التذكارية يعلوها رأس وقرون تيس جبلي، لاشك أنهما وضعا هناك في العصور الحديثة. يبدو أن داخل الحصن أو القلعة كان أقل ترميماً من جدرانها الخارجية، وفي وقت زيارتي كان البنّاؤون المحليون يستولون عليها، لتنفيذ الترميمات والتحسينات لصالح قوة الشرطة، التي كانت مكاتبها في الطابق الأرضي بينما ثكنات إقامتها تحتل جانبين من المساحة رباعية الزوايا في الطابق العلوي، الذي تعلوه أيضاً شرفة وبرج مراقبة للحراسات المناوبة، وكان في الطابق الأرضي فناء بالوسط مفتوح للسماء، والمكاتب متراصة على جانبي صالة المدخل، وارتداد ذو أعمدة مقنطرة في الجدار المقابل، الذي كان بمثابة غرفة استقبال القائد.

وتم استقطاع جزء صغير من الفناء ليكون بمنزلة سجن محلي، ليس به في هذا الوقت إلا سجين واحد، دين بقتل ابن عمه، وكانت القلعة مشيّدة بالحجر الرملي المقطوع من كتل كبيرة ومشذبة جيدة والأبعاد الداخلية للمبنى كانت تقريباً ٦٠ × ٤٠ قدماً، والفناء المفتوح كان مربعاً مساحتُه ثلاثون ياردة. وكان المدخل في الجهة

الشمالية من المحاور الطويلة، المتاخمة في النهاية مع السوق وهو شارع واسع رائع يمتد منها في اتجاه شرق - شمال - شرق. والجزء القديم من القرية يمتد باتجاه الشمال حوالي ٣٠٠ ياردة من القلعة، في حين كان حي الجديدة الجديد، وما به من أشجار الكافور الكثيرة، يقع من جهة الشمال - الشرقي ويغطي مساحة أكبر بصورة هائلة.

وضاحية الخالدية الجديدة تعد في الواقع امتداداً باتجاه الشرق من حي الجديدة، بينما حصن الطين الأصلي، المعروف باسم قصر السديري الذي شيّده عبدالله السديري، يرتفع عند الطرف الشرقي للسوق. وتشغله الآن إدارتا العوائد والمالية الحكوميّتان في حين كانت المكاتب السياسية والتنفيذية توجد في المستشفى التركي القديم، وهو قلعة مربعة هائلة من الطين مجاورة لمحطة الحجر الصحي للحجاج من القصر وخط السكة الحديدية، وكانت مباني المحطة، على بعد حوالي ميل من القلعة وتقع إلى الشمال والشمال - الشرقي.

إن سوق تبوك نموذج للنظافة والراحة، يدين بوجوده للأتراك، الذين خططوه ليفي بالمتطلبات الحالية والمقبلة لمحطة السكة الحديدية. وامتداده الفسيح تحده مبان ساحرة، تستخدم لكل الأغراض التجارية والمنزلية، والأجزاء الداخلية في بعض البيوت الرائعة تنم عن الذوق الرفيع والتقدير العالي للراحة المعقولة، فقد زرت أحد التجار الكبار ذات يوم في قاعة استقباله الفسيحة والمؤثثة تأثيثاً رائعاً والتي تشغل الطابق الأرضي كله من سكن عائلته. وحيث إنه كان رجلاً ذا مال وثراء عريض، فإن عناد الغريض لم

ينقصه شيء من سحر الأمراء التجار في الجزيرة العربية، الذين وصفهم داوتي بعبارات لائقة جداً بأنهم أشرافٌ أو نبلاء أرستقراطيون. وكان والدهُ من قبل عمدةً محلياً، وكان هو نفسه مالك الجزء الأعظم من بساتين نخيل تبوك، التي يشتريها كلما سنحت له فرصة من أرباح تجارته المتنامية، وكان أيضاً يتمتع بمزية كونه رجلاً محلياً، فجدّه الثالثُ غريض كان من فخذ الحميدات من عشيرة الكعابنة (بني كعب) من قبيلة قريش.

وهذه العشيرة ممثلة بصورة قوية في معان بينما هاجرت بعض عائلاتها منذ حوالي سبعة أجيال إلى الزرقاء في الأردن، ويحتمل أنه لا يزال يوجد منها عناصر هناك في هذه الأيام الأكثر رخاءً. لقد كان عناد أكبر إخوانه الخمسة، الذين كان لا يزال اثنان منهم - محمد وإبراهيم - أطفالاً قصراً، أولاد محمود بن سالم بن قادر ابن غريض. ولعناد نفسه ثلاثة من الأبناء، هم محمود، وحمد، وحامد، في حين كان لأخيه سالم اثنان فقط، هما محمد وسليمان، ولم يكن لأخيهما الآخر سوى ولدٍ واحد، هو عبد الله.

وكانت معظم الأعمال التجارية للعائلة قد انتهت في معان، وفي ذلك الوقت كان عناد مهتماً بمشروع مع شركتي، التي كانت وكيلة لشركة سكوني - فاكيوم (Secony - Vacuum) حينها، والتي كانت ستسر بتطويره إذا ثبتت جدواه. لقد كانت حركة السيارات القادمة إلى المملكة العربية السعودية من الشمال حاملة البضائع أو الحجاج تضطر في ظل الظروف القائمة إلى توفير احتياجاتها من الوقود والزيت لكامل الرحلة حتى المدينة قبل مغادرة معان، حيث يمكن

هناك شراء الوقود بما يعادل سبعة ريالات سعودية ونصف الريال للصفيحة. وعند دخول المملكة العربية السعودية كانت السيارات تضطر لدفع رسوم جمركية بالأسعار السعودية الباهظة على جميع كميات الوقود الداخلة إلى البلاد، وكانت المشكلة تزويد السيارات بالوقود داخل المملكة العربية السعودية بأسعار منخفضة ومعقولة. وقد ثبت أن المشكلة هذه ليس لها حل لأن تكلفة تخزين إمدادات الوقود في تبوك ونقلها بالإبل أو بالشاحنات، لن يكون ممكناً إلا إذا تعهدت الحكومة بإنشاء طريق مباشر صالح لحركة السيارات بين تبوك وميناء ضباء، وهي مسافة تصل تقريباً إلى ١٥٠ كيلومتراً بالمقارنة مع طريق السيارات الحالي غير المباشر عن طريق مدين والذي يبلغ ثلاثة أضعاف تلك المسافة.

وبعد ذلك بيوم أو يومين أتيحت لي فرصة مناقشة هذا الموضوع نفسه مع تاجر من العلا، الذي قابلته عند زيارتي لمسؤولي العوائد في قصر السديري، وكان في طريقه إلى معان لأداء بعض الأعمال التجارية ولإعادة عائلته التي كانت في زيارة للأقارب هناك. وكان يدعى عبد المحسن القبلي، وهو من كبار تجار ومُلاّك الأراضي في العلا. وكنت في مرة سابقة قد زرت شخصاً يدعى عطا الله من أتباع الأمير، الذي كان مسؤولاً عن رحلة قمت بها إلى روافة، التي سوف أورد تفاصيلها في الفصل القادم. وكان المسؤول عن إدارة العوائد في تبوك يدعى محمد صالح، الذي تناول معنا طعام العشاء في بيت الضيافة الليلة السابقة. وفي أثناء مجرى الحديث آنذاك ظهر أن مضيفنا، علي ثروت، منذ مجيئه إلى تبوك

من عدة سنوات سابقة قد أصيب بعدوى مرض البلهارسيا نتيجة استحمامه في العين الكبرى. ولم يتمكن من معالجة نفسه حتى تلك اللحظة، وكان يشتكي من آثار الضعف الناجمة عن مرضه، على الرغم من أنه كان يتمنى السفر للخارج للحصول على رعايةٍ صحيحةٍ من خبراء الطب في يوم ما إذا سمحت له واجباته الوظيفية. لقد انتقل هذا المرض من الحجاج المصريين القادمين للبقاع المقدسة في الجزيرة العربية وللمحطات المختلفة على الطريق إلى هناك، ومعظمها مجهزة بخزانات ضخمة لتخزين الماء. وقد وجدت قوقعة البلهارسيا في عدة خزانات بمكة المكرمة، وأيضاً في المدينة المنورة، بيد أن هذه كانت أول مرة أسمع فيها عن وجودها في أماكن بعيدة كهذه.

لقد كان السكان الأصليون بتبوك معظمهم من الكعابنة، من فخذ الحميدات، الذي كان عناد في ذلك الوقت شيخهم المعترف به، وحيث إن هذه القبيلة تزعم أنها فرع من قريش، فيبدو أن الاحتمال المرجح هو أن المقيمين الأصليين منهم قد أسسوا أنفسهم هنا عندما جاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) غازياً في العام الثالث الهجري (٦٢٤ - ٦٢٥ ميلادية)، أو ربما خلال الفتوحات اللاحقة لخلفائه الراشدين في فلسطين وسوريا.

وكما أوضحنا من قبل، فقد جاءت فترات كانت الواحة خلالها مهجورة تماماً أو لا يقيم فيها إلا القليل، بينما شهدت في القرون الحديثة على الأقل هيمنة بني عطية القاسية، الذين كانوا أحياناً في صراع مع السكان المحليين والمسؤولين الأتراك على أمور تتعلق

بالحج أو إنشاء خط السكة الحديدية، وكان شيوخهم أيضاً يملكون بعضاً من الرقع الزراعية الصغيرة التي تروى من العيون المتناثرة بين تبوك وحافة التلال الغربية. ولقد أنهى استيلاء السعوديين على المنطقة طغيان القبيلة الذي دام مدة طويلة.

وكان شيخها يُدعى حرب بن محمد في وقت زيارة دوجلاس كاروثرز لها بالسكة الحديد عام ١٩١٠م، أي بعد وصول الخط إلى تبوك مباشرة. والشيخ الحالي هو حرب بن عيد، الذي ليس له غير الأثر الضئيل في السياسات المحلية خارج الاهتمامات الخاصة بقبيلته. وكان جده محمد هو شيخ القبيلة في زمن زيارة هوبر (١٨٨٤)، على الرغم من أن أخاه الأكبر، صقراً، كان لا يزال حياً، مع ولده علي، بينما كان الابن الأكبر لمحمد هو غُضيان. وعليه فيبدو من الممكن أن ننظر بعين الاعتبار لجيل آخر بين محمد وحرب، الذين ربما كانوا أبناء غُضيان أو حتى علي. ولكننا لا نملك سجلاً حقيقياً يختص بالموضوع ما عدا حقيقة واضحة هي أنه معروف بصورة عامة باسم حرب بن محمد.

إن أحد الشخصيات الأكثر إثارة، الذي قُدّر لي أن أعمل معه كثيراً خلال إقامتي المؤقتة وما تلاها من رحلة إلى مدين، كان شاباً في خدمة الأمير، يُسمى زعل بن مرزوق. لقد كان من أصل سوداني، توفي والده في عام ١٩٥٠م عن عمر يناهز ١٠٤ أعوام (كان قد قال ١٠٧ أعوام بحساب السنين الهجرية)، وقضى والده كل حياته منذ أن كان في العاشرة من عمره في وحول هذه المنطقة.

وقد جاء إلى هنا أصلاً من الخرطوم في ١٨٤٦م مع أبيه إدريس، ربما للحج، على الرغم من أن زعلاً لم يكن متأكداً من ذلك.

بيد أنهما لم يعودا أبداً للسودان، ويبدو أنهما قد وقعا في أسر شيخ بني عطية في ذلك الحين واستعبدهما، ربما كان هو والد أو جد محمد. ومن الواضح أنهما بعد فترة حصلا على حريتهما، ووجد الأب وابنه وظيفة في خدمة الأتراك الذين كانوا في ذلك الوقت يبذلون بعضاً من جهودهم المتقطعة لإعادة تنظيم طريق الحجاج، واشتركوا في ترميم وإصلاح القلعة التي طال إهمالها، وربما يكون ذلك على الأرجح قرب أو في وقت زيارة هوبر للمنطقة، حيث نراه يذكر إن قلعة تبوك وقلعة الأخضر على مسافة أبعد من تبوك على طريق الحجاج، وكانتا تحت حراسة محمد آغا وحسن آغا على التوالي.

وبعد وفاة إدريس، ظل مرزوق بلا ريب يواصل خدمة الأتراك فيما يتصل بحراسة وتنظيم الحج، ولكن زعلاً كان صغيراً جداً حتى إنه لا يذكر شيئاً عن الحرب الأولى والفترة التي تلتها مباشرة والتي خضعت تبوك خلالها لإدارة الأشراف. ومع استيلاء السعوديين على تبوك بدأت مرحلة جديدة في حياة مرزوق، الذي كان آنذاك قد بلغ الثمانين من عمره، على الرغم من أنه لم يكن شديد الضعف والوهن بدرجةٍ تمنعه عن العمل. وكان أهم ما يشغل باله، على كل حال، إعداد ولده للحياة المديدة أمامه، وهكذا كان زعل، الذي كان عمره حوالي الثلاثين عندما قابلته، قد اكتسب معرفة بسيطة بالقراءة والكتابة.

وحيث إنه كان ذكياً وطموحاً، فقد استطاع أن يكتب ويقرأ بسهولة، وسرعان ما أصبح عضواً ذا قيمةٍ بالغةٍ من موظفي الأمير. لقد كان خالد السديري، ومن قبله -دون ريب- عبد الله السديري يستفيدان من زعل على نطاق واسع في المراسلات والبعثات إلى مناطق القبائل. وخلال ثنايا تجاربه وخبراته اكتسب معرفة جيّدة جداً ليس فقط بالشؤون القبلية ولكن أيضاً بجغرافية الأقاليم الشمالية، والتي أفادتني للغاية عند الحاجة إليها. لقد كان بارعاً وكفئاً وبصورة عامة أفضل من أيٍّ من الأدلاء المحليين أو القبليين الذين توفروا لي من حين لآخر في هذه المنطقة. كما إنه كان أيضاً باحثاً متحمّساً يسعى وراء النقوش والأشياء الأخرى ذات الأهمية الأثرية، والتي ظل يفيدني بها أولاً بأول بخطابات متكررة في غضون السنين التي تلت ذلك. وعندما بدأت في بعثة أخرى إلى مدين في شتاء عام ١٩٥٢م- ١٩٥٣م، أبرقت إلى خالد السديري، طالباً منه أن يسمح لزعل أن يلحق بي في ضباء، ومن هذه النقطة فصاعداً وفي العودة إلى جدة كان هو الدليل، والفيلسوف، والصديق لي. وبالمناسبة فإنه قد تزوج من فتاة من تبوك، وأنجب منها ولدين، كان أكبرهما سليم ويدرس في مدرسة محلية وله أيضاً ابنة على ما أعتقد.

لقد قام الأتراك - خلال إنشاء السكة الحديد، بهدم وإزالة البيوت المتناثرة في المنطقة شرق القلعة حتى ينشئوا سوقاً واسعة ومخططة تخطيطاً جيداً، كما خططوا أيضاً قرية الجديّدة حسب المعايير الحديثة، وخصصوا مواقع البناء فيها للسكان النازحين

وغيرهم من الراغبين في الإقامة بتبوك، وفي مقدمة القرية الجديدة أقاموا مسجداً على البقعة التي -طبقاً للروايات المتواترة- صلى فيها الرسول نفسه (صلى الله عليه وسلم) أثناء غزوته، وكان مشيداً بصورة حسنة من الحجر الرملي المشذب تشذيباً جيداً ضمن مجمع فسيح مسوّر، وكان داخلُ المسجد يبعثُ على الراحة والطمأنينة بدرجة كافية، ونظيفاً، وفيه تهوية جيّدة. وكانت هناك لوحة تذكارية فوق باب المدخل، تحتوي على خمسة سطور من النثر التركي، توضح حقيقة أنه قد تم تشييده في عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧ - ١٩٠٨ ميلادية) حسب النص التالي:

"الغازي السلطان عبد الحميد الثاني، بن عبد المجيد. هذه الأرض المباركة مكان لعبادة المسلمين، ونور منارتها يرى مثل الثريا، لأن النبي عليه السلام قد صلى فعلاً في هذا المكان، الذي ظل مباركاً حتى هذا اليوم بسبب تشريفه له. وبصلاته في هذا المكان وبوجوده فيه ولو لأيام قلائل، وبأعماله، أصبح هذا المكان طاهراً. وبسبب زيارة النبي عليه السلام لهذا المكان وصلاته فيه قام كاظم باشا بتجديده وتوسيعه، وقد كتب عليه هذا عند الانتهاء من إنشائه، وأرخّ له طبقاً لتاريخ مكة: ١٣٢٥هـ".

وطبقاً للأصول الشائعة فيجب أن يكون الشطر الأخير من الإهداء أعلاه حساباً للتاريخ بالحروف ذات القيمة العددية وعلى النظام الأبجدي. ولكن الجملة التركية "جامع حضرت سلطان أولادي بنا" تبدو أنها تعني عام ١٣٨١هـ. وربما يكون قد أخطأ في الحساب، أو ربما أنا المخطئ.

إن محطة السكة الحديد، ذات المباني جيّدة التوزيع المساحي وتحتل حوالي نصف ميل يمتد طولاً وباستقامة كاملة على الخط في سهل صحراوي منبسط تماماً، وهي بطبيعة الحال، حديثة، وربما يكون قد صممها المهندس الألماني الشهير مسنير باشا، ويبلغ عرض الخط أكثر من متر واحد، وخطوط القضيب كلها من الحديد الصلب للتغلب على مكائد البدو، الذين قد يجدون العوارض الخشبية كلها عظيمة النفع لنيران خيامهم.

ومنذ التدمير الكامل للخط الذي فصله لورانس ورفاقه خلال الحرب الأولى، ما فتئ العرب يخلعون ويفكون الأشغال الخشبية من جميع مباني المحطة لاستخدامها في الأغراض المنزلية. وفي السنوات الأخيرة تم ترميمُ بعضٍ من هذه المباني واستئناف استعمالها.

وفي وقت زيارتي كان الكثير منها يُستغل لإيواء القوات العسكرية والشرطة المحلية، التي قام أفرادها المتزوجون ببناء قرية لأنفسهم من البيوت الطينية قرب المحطة ولكن على الجهة الشرقية من الخط، وكان أحد المباني يستغل كمحطة لاسلكي، مع السكن الضروري للموظفين، بينما برج المياه، الذي كان يستخدم ذات يوم في إمداد المياه إلى الماكينات من بئر المحطة، كان عاطلاً عن العمل، ولم يعد هناك أي ماكينات بعد تحتاج للعناية في كومة الماكينات المحطمة الآن في الطرف الجنوبي من المحطة. وبالقرب منها يوجد ربما أكبر معلم إثارة للفضول والاستغراب في منطقة المحطة، ألا وهي غرفة تحت الأرض، التي قد تكون صممت كمستودع

للذخيرة، على الرغم من أنهم أكدوا لي أن غرضها الرئيسي في عهد الأتراك كان لإيواء، غير مريح على الإطلاق، للنوع الأشد خطراً من المجرمين، المدانين، أو ربما مشتبه فقط، بإعاقتهم لتقدم سير العمل في خط سكة الحديد، وكانت تعرف أيضاً باسم "القبو"، أو زنزانة السجن، على حسب نموذجها الابتدائي في مكة، التي اعتاد الملك حسين أن يحبس فيها من لا يحبهم.

كما أن وجود الثعابين والعقارب والقوارض يؤمن إقامة غير كريمة بصورة إضافية للنزلاء التعساء، الذين كانوا يرزحون في السلاسل والأغلال كإجراء احتياطي إضافي ضد هروبهم ولو بأعجوبة أو معجزة. بيد أني لم أجد أحداً في سجن تبوك ذاك إلا الرمال التي كانت تملؤه في الواقع.

وفي الطرف الجنوبي من المحطة خط جانبي يؤدي بقطارات الحجاج إلى مخيم الحجر الصحي، الذي كان ذات يوم محاطاً بأسلاك شائكة ومجهزاً بخيام في صفوف مكتظة بشوارع رئيسة وجانبية، ولكنه الآن صحراء جدباء لا ترى فيها غير أثر ضئيل من المخطط الأصلي، وتتناثر فيها البقايا الحزينة لهؤلاء القوم التعساء الذين قضى عليهم القدر، بسب الروتين المحض، أن يمضوا عدداً من الأيام في بؤس وشقاء منظم قبل أن يُسمح لهم بالعودة إلى العالم الفسيح الذي جاؤوا منه. ولهؤلاء الذين كانوا مرضى أو يحتاجون إلى رعاية طبية كانت توجد قلعةٌ عظيمة على الطرف الغربي من المخيم، التي كانت تُسمى مستشفى وهي بيت لسكن فريق الموظفين الطبي وإذا استلزم الأمر أحياناً، تزويد الحجاج بتلك

الأدوية التي قد يحتاجونها، أو تسهيلات حفظ الجثث في حالة وفاتهم، وقد تحول هذا المبنى الآن لاستخدامات مدنية، وفي هذا الوقت صار مركزاً للإدارة حتى تشييد مبنى جديد.

لقد كان من الطراز القديم وغير مريح، ولكنه كان يخدم الغرض بصورة كافية وأكثر. وإلى الجنوب - الشرقي من المستشفى، على مسافة غير بعيدة، تقع مجموعة صغيرة من نتوءات الصخور الرملية، تسمى الهضيبة، والهضيبة الصغيرة التي كانت محجراً لقطع حجارة إنشاء المحطة ومباني الأتراك الأخرى.

إن العدد العظيم للنقوش والخربشات باللغة العربية على سطوح صخورها يبين أن الحجاج الذين كانوا محتجزين في محطة الحجر الصحي يُسمح لهم بزيارتهما، على الرغم من أنني لم أعثر على شيء ذي صلة بالنقوش القديمة. وهما، على كل حال، وفّرا لنا رؤية جيدة للمنطقة المحيطة بهما، وليس ببعيد من النتوء الأكبر كانت هناك بئر أقام عليها الأتراك خلال الحرب الأولى مضخة تدور بمحرك لتوريد الماء للقوات المتمركزة على هذه المرتفعات، وهذه المضخة يديرها الآن صديقي عطا الله لريّ رقعة أرض صغيرة مزروعة بالذرة قريباً من هنا، وفي الوقت نفسه قام اثنان من حرس الأمير، اللذان كانا يفضلان هواء الصحراء النقي على جو القرية الخانق، بنصب خيامهما على مقربة من البئر. لقد كانا رجلين من قبيلة بني مُرّة في الربع الخالي، اللذين أصبحا بطريقة ما مرتبطين بآل السديري، ولزما خالداً حتى في الشمال القاصي.

وكان طول نتوء الهضيبة الرئيس، ٥٠٠ ياردة تقريباً من الشمال - الغربي إلى الجنوب - الشرقي، يمثل نقطة رائعة لإلقاء نظرة عامة منها على تبوك ودراسة مخططها وما يحيط بها، وإلى البعيد للشمال تماماً يقف منبر النبي (صلى الله عليه وسلم) واضحاً جلياً فوق جبل شرورى المنبسط، بينما كانت قمم العاجات المتناثرة تشكل خطاً طويلاً على طول الحافة الغربية لجبل شرورى وعلى مسافة أقرب، وفي نفس الاتجاه تقريباً (الشمال - الغربي) يمتد الجزء الرئيس من تبوك والمحطة، على الرغم من أن نخيل الواحة كان قد اعترض رؤيتي للقلعة والمسجد، وعلى اليسار من الواحة تنتشر سلسلة كاملة من الرقع الزراعية، كل واحدة منها تعتمد على عين خاصة بها. وكان الحي السكني الجديد، الخالدية، أنشئ تخليداً لذكرى مؤسسه، الأمير الحالي، يقع في الغرب إلى - الشمال - الغربي تقريباً، ويقع بستان حرب على يساره. من جهة اليمين لليسار، نجد عين ومزرعة «أبو سبعة»، وعين رُحيّل خلفها على مسافة بعيدة إلى اليمين، ويليها عين كُريّم مع مركز الشرطة المحلي، وواحة عين رايس، والخثما عن يمينها، وأخيراً وإلى الجنوب تقريباً من الهضيبة، رقع الجرثومة المتناثرة. وعلى طول الحافة الشرقية لحوض تبوك الواسع كانت سلاسل جبال غوانم وظفير تستمر في خط شرورى باتجاه الجنوب. وباتجاه الغرب كنا نستطيع رؤية خط التلال يغطي الطريق المؤدي إلى تبوك من هذه الجهة، وفجوة الفوهة الضيقة التي يمر من خلالها طريق السيارات الوحيد إلى حسمى متجهاً إلى ممر الخُرَيْطة والبحر في ضباء.

وقد أمضيت أصيل أحد الأيام في جولة على العيون الخارجية والرقع الزراعية، حيث قدت سيارتي أولاً إلى أبعدها جميعاً، الجرثومة. لقد كان من الواضح أنها شهدت عهوداً زاهرة على الرغم من المشهد الحزين الماثل فيها الآن للعيان، فهي تضم نخلة وحيدة بائسة على ما يبدو وبقعة صغيرة من نبات القمح محاطة بسور منخفض، وتروى من عين ضعيفة تنبع من قمة تل صغير في قنوات ضيقة تؤدي للجنوب، والشمال، والشرق من الأرض الزراعية المنخفضة.

وعلى مقربة أيضاً كانت هناك بئر ذات ماء على عمق قامتين فقط، ومن الواضح أنها تتصل بالعين نفسها. وتقول الروايات المأثورة محلياً إن هذه البقعةَ ووادي قناة في التلال البعيدة للغرب، والمشهورين بالتين اللذيذ ومنتجات البساتين الأخرى، هما مواقع الموطن الأول للكعابنة قبل أن يستقر المهاجرون وينشئوا تبوك نفسها. ومن المؤكد أن الجرثومة لم تكن مزدهرة مؤخراً، وكان كل سكانها في وقت زيارتي أسرة واحدة تعيش في بيت صغير، بيد أنها فخورة بممتلكاتها واستقلالها. وكان فلاح الجرثومة، الذي يعمل في الفدان أو الفدانين اللذين ورثهما عن أبيه بكلتا يديه، يُدعى بنيا أبو طربوش من قبيلة بني عطية. وقد اعتذر اعتذاراً مؤثراً عن عدم قدرته على دعوتنا في بيته لقدح من القهوة، لأنه ليس لديه قهوة يقدمها لنا، وقد قبل المبلغ الزهيد الذي أعطيته إياه بتواضع أبيّ لرجل شديد الفقر لديه أسرة عليه أن يفكر فيها، ولم أطلب منه تفسيراً لاسمه الغريب تماماً، والذي يعني "صبياً صغيراً يرتدي

قبعة" . ولم يكن يملك إلا جزءاً فقط من مزرعة الجرثومة الأصلية، وما تبقى منها كان مهجوراً تماماً.

وهناك عين أخرى تتدفق من قمة جبل رملي شاهق بجوار خمس من أشجار الأثل العتيقة كاملة النمو، التي تضرب جذورها بلا شك في الأرض الرطبة حولها. ومع ذلك كانت هناك عين ثالثة قريبة ومن الواضح أنها ميتة بعد أن دفنتها أعواد القصب، بينما توجد عين رابعة على بُعد عدة مئات قليلة من الياردات، حية ولكنها خاملة. وبين الاثنتين الأوليين رأيت تلالاً من آثار بيوت حجرية قليلة، قيل: إنها آثار قرية الكعابنة الأصلية، وعلى مسافة بعيدة في السهل إلى الشرق والجنوب الشرقي يبرز تلاّن صغيران ولكنهما واضحان هما طويّل التركمان وطويّل النبيه، ويحتمل أن يكون الأخير موقع معسكر النبي (صلى الله عليه وسلم) خلال غزوة تبوك، بينما لم أستطع أن أحصل على تفسير لاسم الأول. وبالقرب منا على طول حافة منطقة التلال كانت تمتد آثار رجوم شوهر الواسعة، التي سوف نذكر مزيداً من التفاصيل عنها لاحقاً.

وعندما عدنا لاتجاه الشمال - الغربي، توقفنا لفحص أول عين من ثلاث عيون تُسمى عين كريم وتقع على قمة تل يرتفع خمسين قدماً، بفوهة محفورة في الصخر الرملي حتى العين الحقيقية التي يبلغ عمقها أربع أو خمس قامات. وقد ماتت العين نفسها، والمساحة الصغيرة التي كانت ذات يوم تسقيها عند سفح التل أصبحت مهجورة وليس فيها غير قليل من النخيل المريض ليذكّر المرء بالأيام الجميلة الخالية. وكانت فوهة البئر مغطاة لتفادي خطر طمرها

بالرمل المتطاير، في حين كان النفق المؤدي إليه مسقوفاً بعوارض حديدية من خط السكة الحديدية.

وكان من الواضح أن البئر قد تم تأهيلها في عصور متأخرة إلا أن ذلك لم يؤدِ إلى النتائج المرغوبة للذين فعلوا ذلك.

واصلنا السير في نفس الاتجاه وأتينا على بساتين نخيل في عين رايس المزدهرة، وهي الواحة الرئيسة في المنطقة جنوب تبوك. وتتدفق مياه هذه العين في حوض، يبلغ نحو عشرين قدماً مربعاً وهذا الحوض مسور بجدار دائري حوالي اثني عشر قدماً من الصخور الرملية المشذّبة بصورة خشنة. من هذه العين يسيل الماء باتجاه الشمال - الشرقي حتى يدخل في خزان عند حافة حزام النخيل المزدهر تماماً. وكان هناك خزان ثان يتلقى المياه الفائضة من العين نفسها ولكنه كان فيما يبدو متوقفاً عن العمل، وكان مغطى بصورة كثيفة بالطين والقصب.

وعلى العموم يبدو لي أن تدفق الماء كان بطيئاً بسبب ضعف الصيانة، بينما كانت أجزاء من الجدار الدائري وضفاف القناة في حالة من التدهور والانهيار. وهذه المنطقة تخص ملاكاً غائبين من بني عطية، ويبدو أنها مهملة بصورة مؤسفة. وكان مركز الشرطة المعنيّ بالأمن العام للمنطقة يقع على مسافة غير بعيدة من عين رايس نحو الشمال - الشرقي على الطريق إلى تبوك. وقد قمنا بزيارة هذا المركز لتبادل الأحاديث الودية مع أفراد الشرطة المناوبين قبل أن نرجع إلى مأوانا.

إن حياة رجل الشرطة من النادر أن تكون سعيدة في مثل هذه المراكز الخارجية الصغيرة، مع إن مضيفينا البسطاء الودودين قد

استهانوا بمتاعبهم. وكان المركز وعدد من البيوت المصنوعة من أغصان الشجر والخيام البدوية التي تسكن فيها عائلات رجال الشرطة المتزوجين تشغل واجهة بستان صغير من النخيل يقوم على عين ثانية من عيون كريّم، بينما على الجانب البعيد منها تقع ثاني أكبر واحة من المجموعة، التي تعرف باسم خشما. وبين مركز الشرطة وتبوك تقع عين ثالثة من عيون كريّم، المهجورة نسبياً على قمة جبل منخفض، علاوة على عين رُحيّل وعين أبو سبعة وبستان حرب. وكانت الاثنتان الأخيرتان -وهما من العيون الخارجية الأقرب إلى تبوك وتقابل تقريباً ضاحية الخالدية الجديدة- مملوكتين في هذا الوقت بصورة جزئية لخالد السديري، الذي حصل في النهاية على حقوق الملكية كلها من عيد، شيخ بني عطية.

وقد أتيحت لي مناسبات كثيرة لزيارة هذه الأصقاع الأقرب في جولات قصيرة خلال فترات الأصيل مع علي ثروت، مع أن نقطة الاختلاف الوحيدة بينها وبين الأخريات التي أوردنا وصفها هنا تعود لقربها من مقر القيادة حيث استحوذت على قدر كبير من اهتمام السلطان ورعايته.

ومن الصعب أن نشكك في أن منطقة تبوك هذه كلها، بالمعالجة الصحيحة وبعض المعونة من الحكومة، يمكن أن تستعيد شيئاً من الرخاء والازدهار اللذين تمتعت بهما تحت حكم الأنباط منذ ألفي عام مضت.

وفي الحقيقة يمكن أن تتسع منطقة الرخاء إلى مسافة أكبر جنوباً لتضم منطقة رجوم شوهر التي زرتها في آخر يوم من إقامتي المؤقتة

بتبوك قبل استئناف رحلتي نحو الشمال. وتمتد حوالي اثني عشر ميلاً جنوب - جنوب - شرق من تبوك، وحتى نصلها، قطعنا منطقة وعرة إلى نقطة قرب الجرثومة، حيث عبرنا قناة شعيب المشاش لكي نصل إلى الحوض الواسع لشعيب عاجات عند حافة منطقة المرتفعات في الغرب.

وهنا توجد آثار وعلامات واضحة لا لبس فيها على التنمية والتطور في العهود الغابرة. وتتمثل في الحقول الزراعية المهجورة منذ أمد طويل تلك التي كانت تروى من العيون الخامدة الآن والسيول من الأرض المرتفعة على يميننا. وهنا وهناك كانت تنهض نخلة مكافحة من أجل البقاء لتبين لنا أن مستوى المياه الجوفية ليس ببعيد تحت السطح، ولكننا لم نعثر على أي أثر للبشر الذين كانوا ذاتَ يوم يزرعون هذه المنطقة، حتى وصلنا إلى الأرض الأكثر وعورة وجبال رجوم شوهر المنخفضة، وهنا على الأقل كانت توجد قبور لعدد لا بأس به من السكان، محفوظة على مر الدهور من السيول الموسمية التي كانوا يعتمدون عليها في رزقهم أثناء حياتهم. والمناطق المنخفضة بين الجبال التي شيدت عليها القبور كانت تبين علامات من الزراعة القديمة، بيد أن القبور نفسها هي التي برهنت على وجود البشر الذين أقاموا ذات يوم في هذه المساحات الخاوية الآن.

وكان أول جبل أتينا عليه فيه الكثير من المباني الصغيرة المشيّدة بالصخور الرملية المشذّبة بصورة فجة، والتي ذكرتّني بقوة بقبور سبأ في منطقة رواق محياش قرب الحدود اليمنية. وكانت مساحة أول مبنى فحصته تبلغ سبعة أقدام ونصف القدم وهو مبنى مربع وارتفاعه

٦ أقدام، وله سقف مشيّد بطريقة جيدة وقد سقط بعض أجزائه في الداخل، وكان مقسماً في الوسط بجدار إلى غرفتين، ومن الواضح أنه مصمم ليضم جثتين، ربما لرجل وزوجته. وكان هناك جزء من الجدار الجنوبي قد دمره الباحثون عن الكنوز في العصر الحديث.

وهناك مبنى ثان من نفس الحجم والشكل تقريباً وهو أنقاض مهدمة ما عدا جزءاً من جدرانه في أحد الأركان. وبني ثالث على مدرج منخفض في تل صغير تبلغ مساحته تسعة أقدام مربعة وارتفاعه ستة أقدام على الرغم من انهياره نسبياً في جانبين منه. وعلى قمة التل الصغير نفسه، الذي يشرف على المنطقة كلها، كان هناك مبنى متهدم إلى حد ما ولكنه تظهر فيه بوضوح غرفة الدفن في الداخل، وعرضها ٢ر٥ قدمان ونصف القدم وطولها ١٠ أقدام وارتفاعها ٤ أقدام. ومن الواضح أنها قد فتحت من الجهة الغربية، ومن المحتمل أن تكون قد استعملت في العصور المتأخرة كثيراً كمركز مراقبة أو حاجز دفاعي أو حصن.

وعلى العموم كان هناك حوالي عشرة قبور أو اثني عشر قبراً على هذا التل الصغير أو حوله. وعلى الجبل في الشرق يوجد الكثير من المباني المشابهة، من بينها قبرٌ تبلغ أبعاده ٥ر٧ × ٥ × ٨ أقدام فيه جهتان سالمتان وكذا نصف الجهة الثالثة، بينما كان الباقي متهدماً، وغرفة الدفن طولها ستة أقدام واتساعها قدمان ونصف. وتبلغ أبعاد مبنى آخر ١٠ × ٧ × ٨ أقدام، وهو ينقسم إلى غرفتين للدفن. وثالث كان يحتوي على ثلاث غرف للدفن، مفصولة عن بعضها بجدران داخلية، وكانت الأبعاد العمومية ٥ر١٢ × ٦ × ٦ أقدام. والاتجاه

الطولي لهذا البناء كان تقريباً شـــرق - غرب، ولكن لا يـبدو أن هناك أي نوع من التوحد في هذا الشأن بين كافة القبور في المنطقة، التي يبدو أن طبيعتها كانت تملي شكل وإطار القبور التي يتم بناؤها عليها.

كذلك هناك مبنى آخر غير عـادي من ناحية شكله البيضـوي، وأبعاده ١٠ × ٥ أقدام، وبه غرفة دفن واحدة ارتفاعها ثمانية أقدام وهو متهدم نسبياً في الطرف الشرقي. وكان اتجاهه بكل تأكيد شمال غرب وجنوب - شرق. ومبنى آخر كان يتجه غرب - جنوب - غرب وشرق - شـمـال - شـرق وتبلغ مساحته ١٠ × ٥ر٧ أقدام ونصف القدم ومقسم إلى غرفتين، ولكنه كان في حالة سيئة. وآخر مبنى فحصته بالتفصيل كان يتجه شمال - شرق وجنوب - غرب، ويحتوي على غرفة واحدة أبعادها ١٠ × ٥ × ٧ أقدام. ولم أعثر في المنطقة كلها على أي شيء ذي قيمة أثرية، لا عظام، ولا خرز، ولا نقوش ولا أي أثر للقوم الذين دفنوا في هذه القبور.

وقد زار تشـارلز هوبر هذه الأنقاض قـبل عام فقط من مولدي، ولم يجد غـير القليل من بقايا عظام وسط الكثير من روث الضباع المفترسة، التي نسب إليها سبب اختفاء الجثث التي شيدت القبور من أجلها. ولكن ذلك لا بد أنه قد حـدث منذ عـهـد طويل مـضى. إنه عندما نسب القبور للأنباط كان محقاً بكل تأكيد تقريباً، وهذه مسألة تعود لألفي سنة ماضية، عندما كانت أوضاع تبوك قصة من التدهور والبؤس. وقد بذل خالد السديري شيئاً نحو استعادة المدينة لرخائها القديم، كما إن تعيينه مؤخراً وزيراً للزراعة في الحكومة السعودية قد يؤدي أيضاً إلى تطوير المنطقة التي ظل أميراً عليها مدة طويلة.

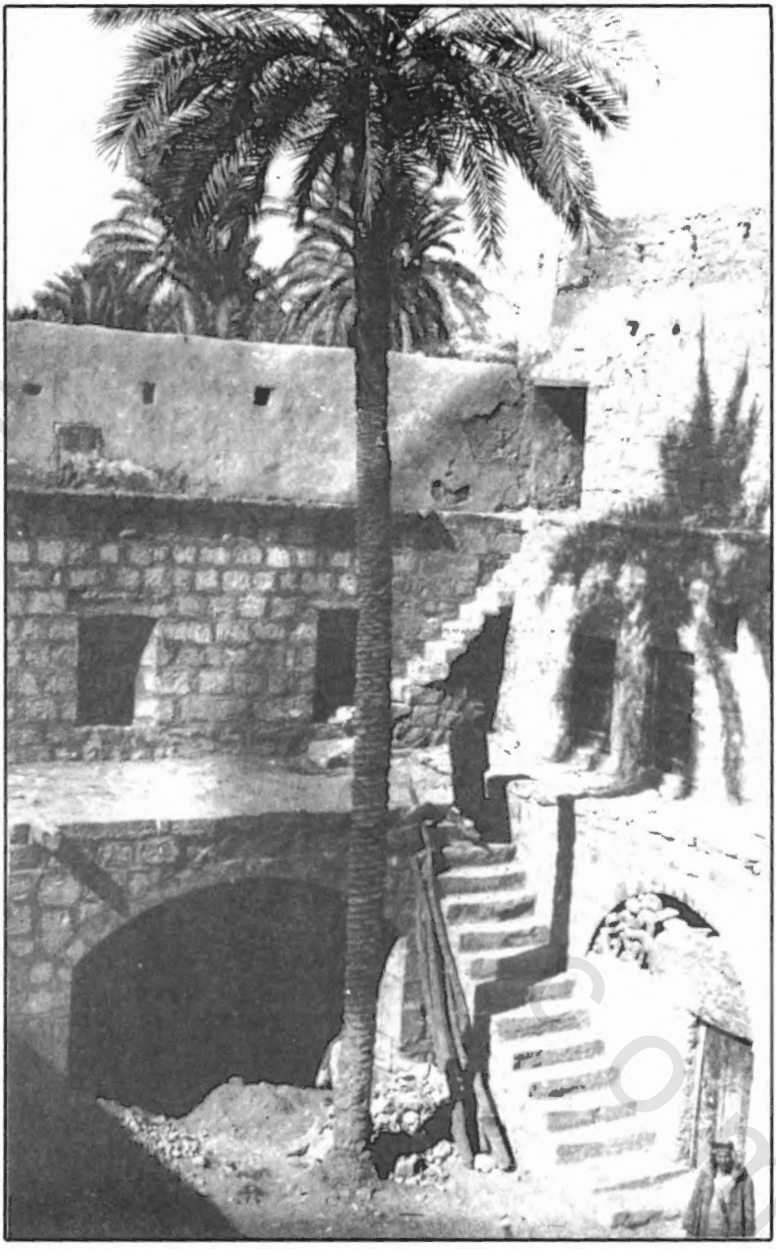

الواجهة الأمامية: قلعة تبوك

ممر ذو خشب كما يبدو من موضع ممناه

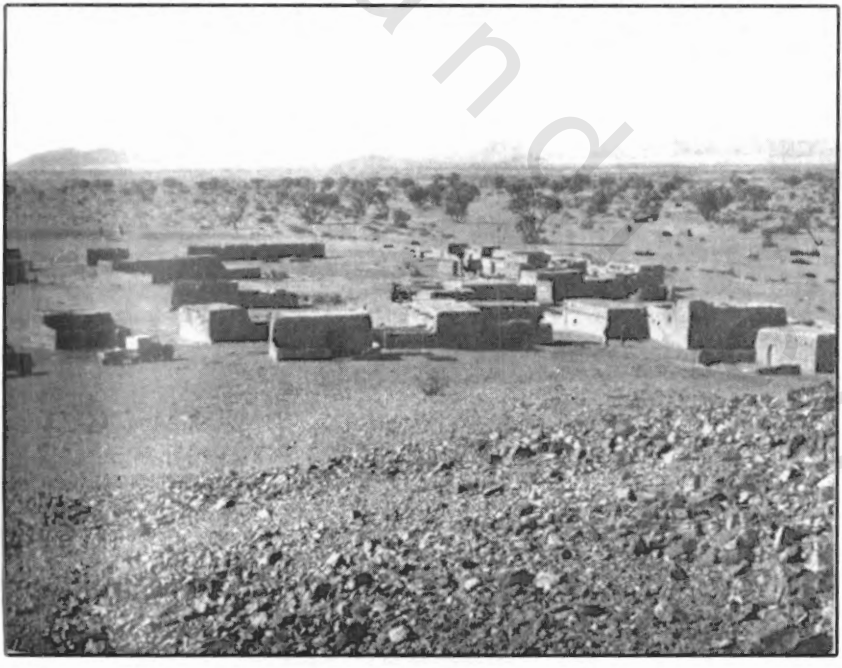

قرية الحناكية

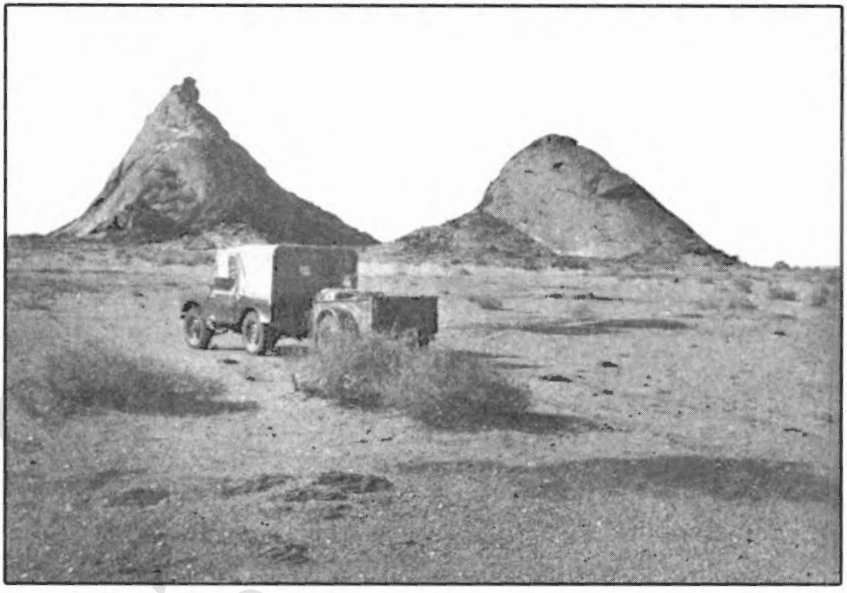

قمم جثوم الجرانيتية

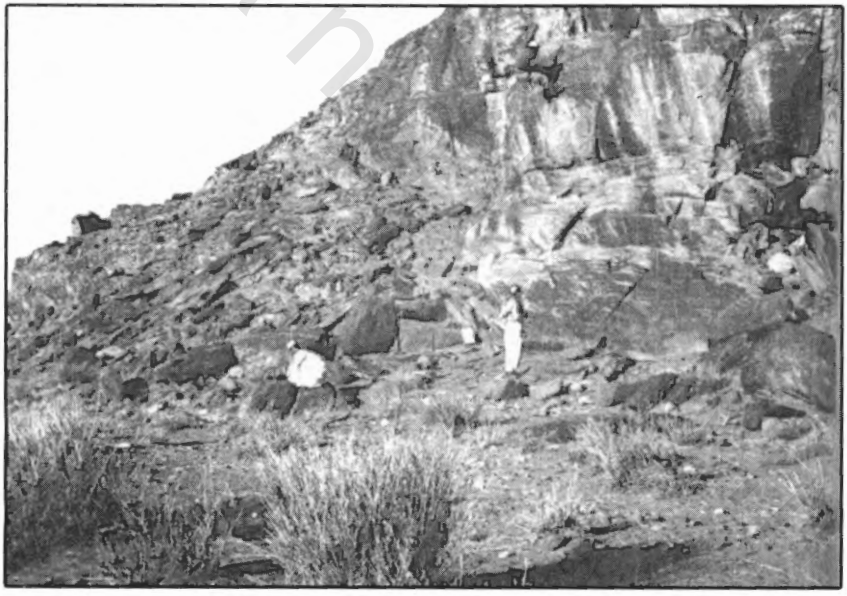

وادي المسيل وعليه نقوش ملوك سبأ

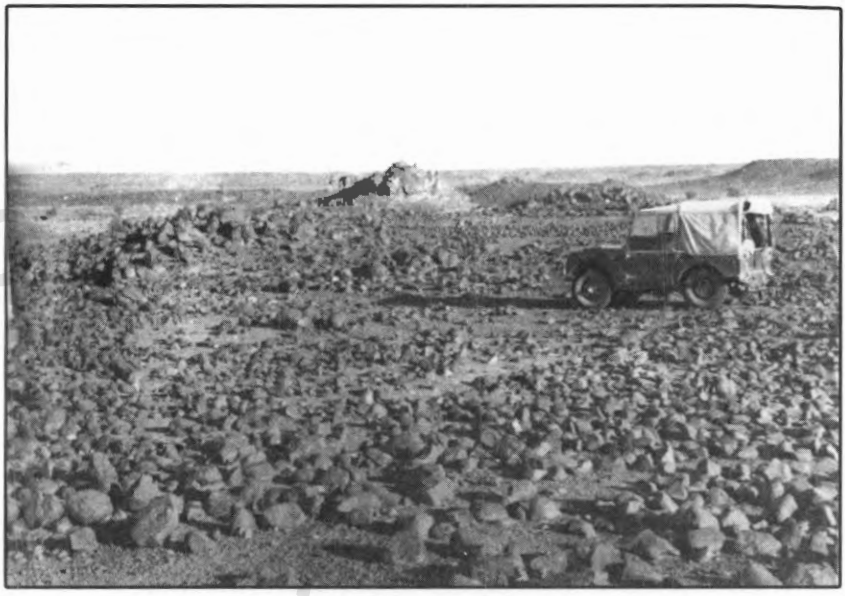

سيارة لاندروفر في حقل اللافه بالقرب من شعيب السمينان

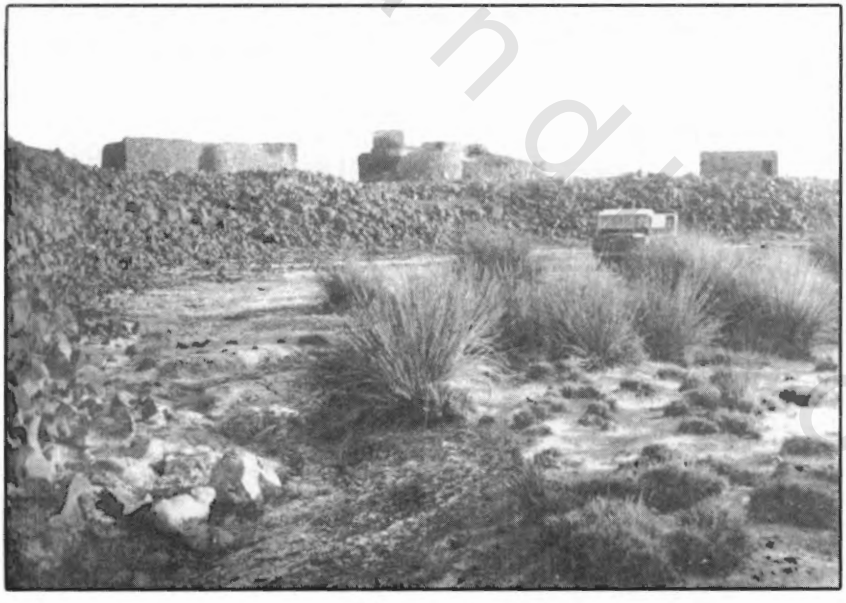

حي هجرة الثمد

خزان الحصيد جانب أسفل التيار

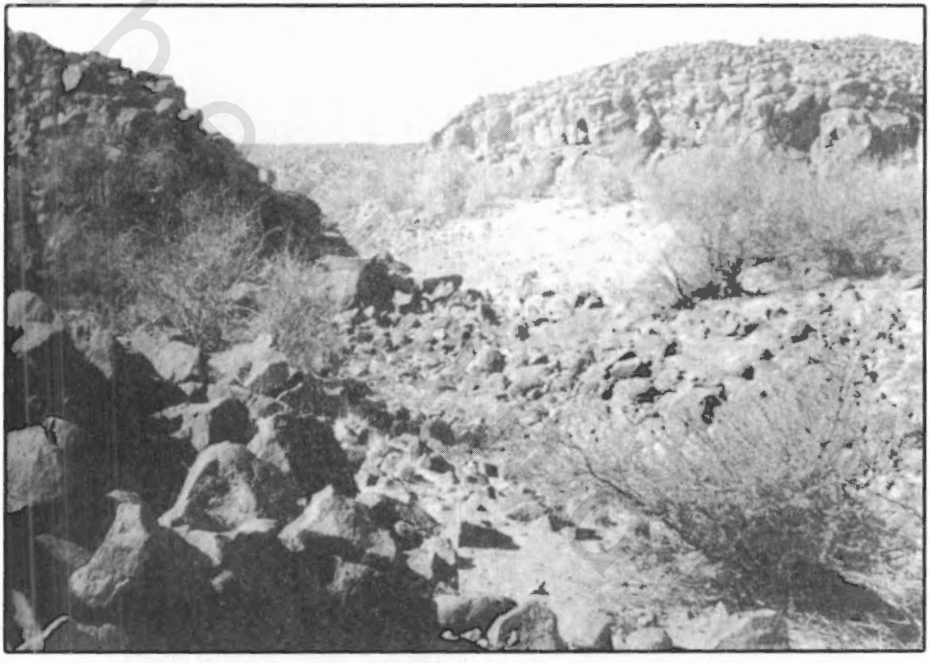

مسيل غدير المُكتّب

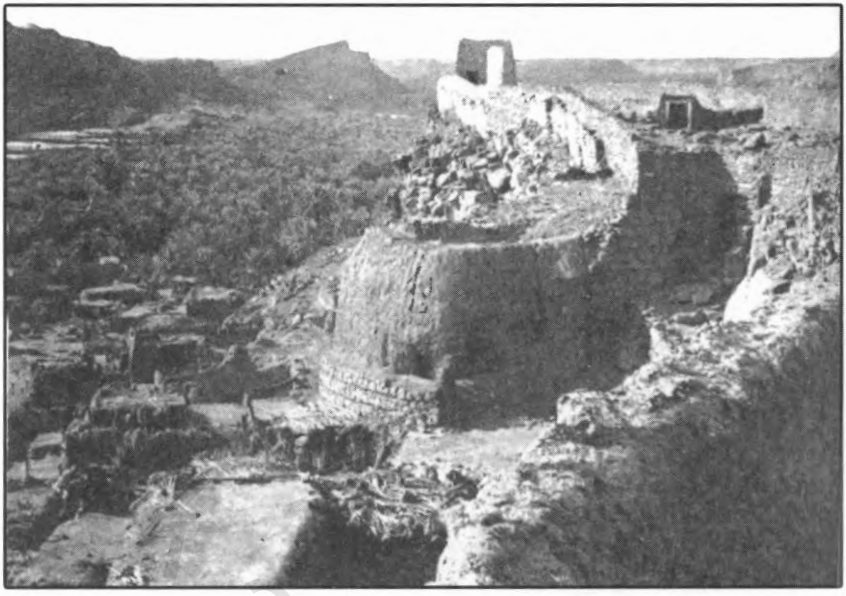

الطريق الجبلي إلى حصن مرحب

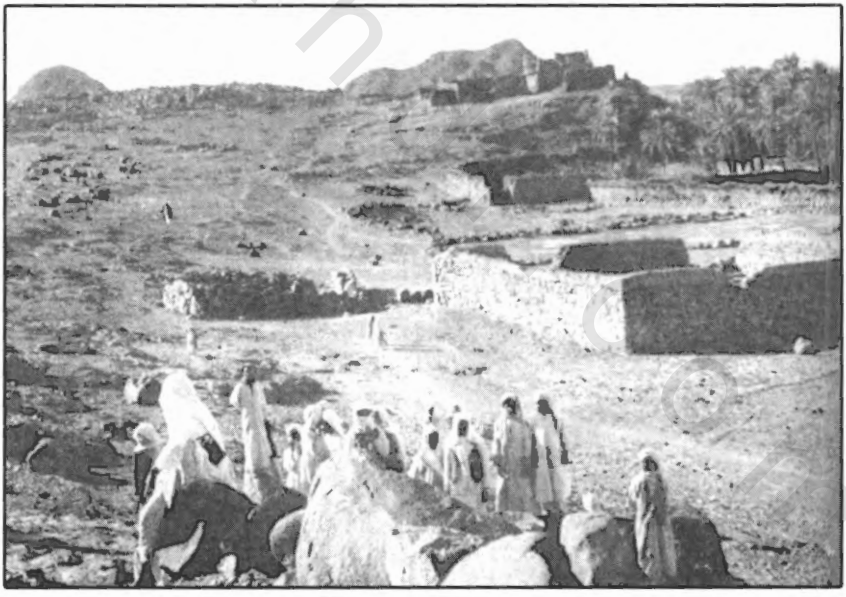

حصن الربيع التركي في عين الصفصافة في خيبر

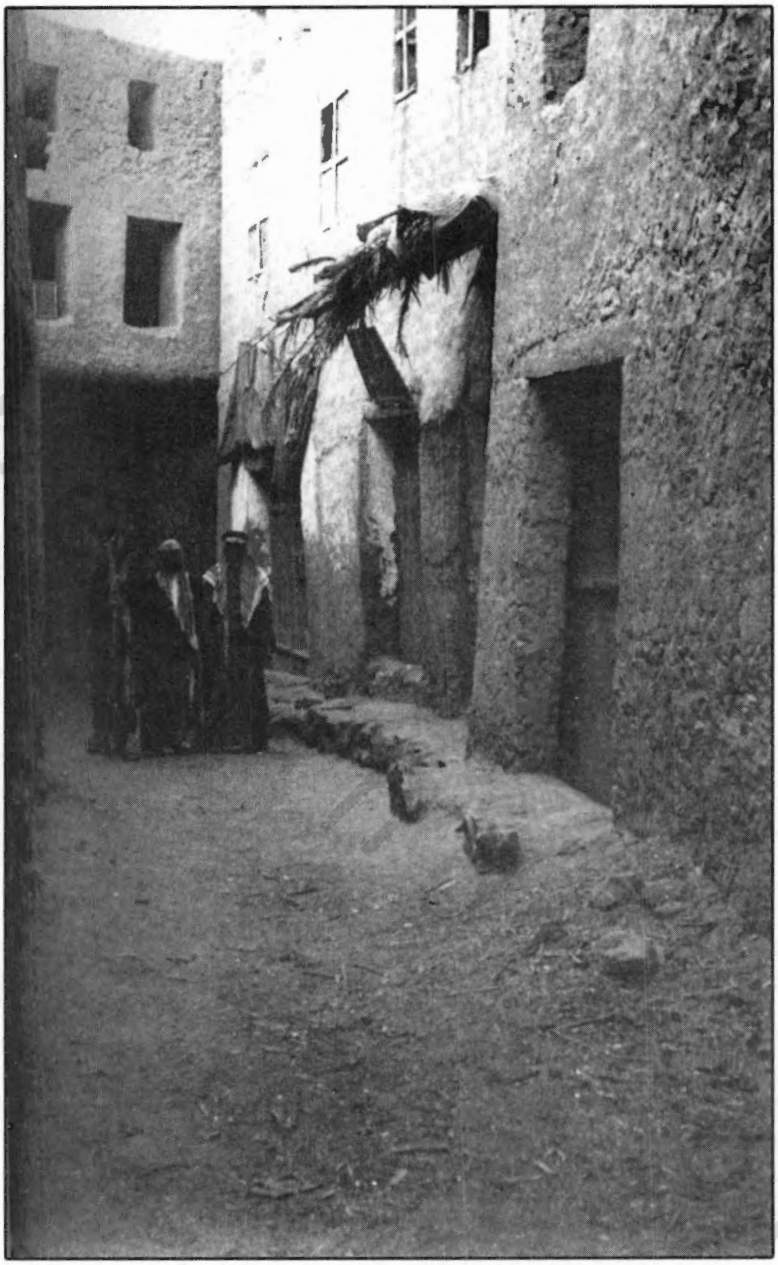

شارع في خيبر ومدرسة مقابلة لمنزل النجمي حيث عاش دواتي في عام ١٨٧٧م

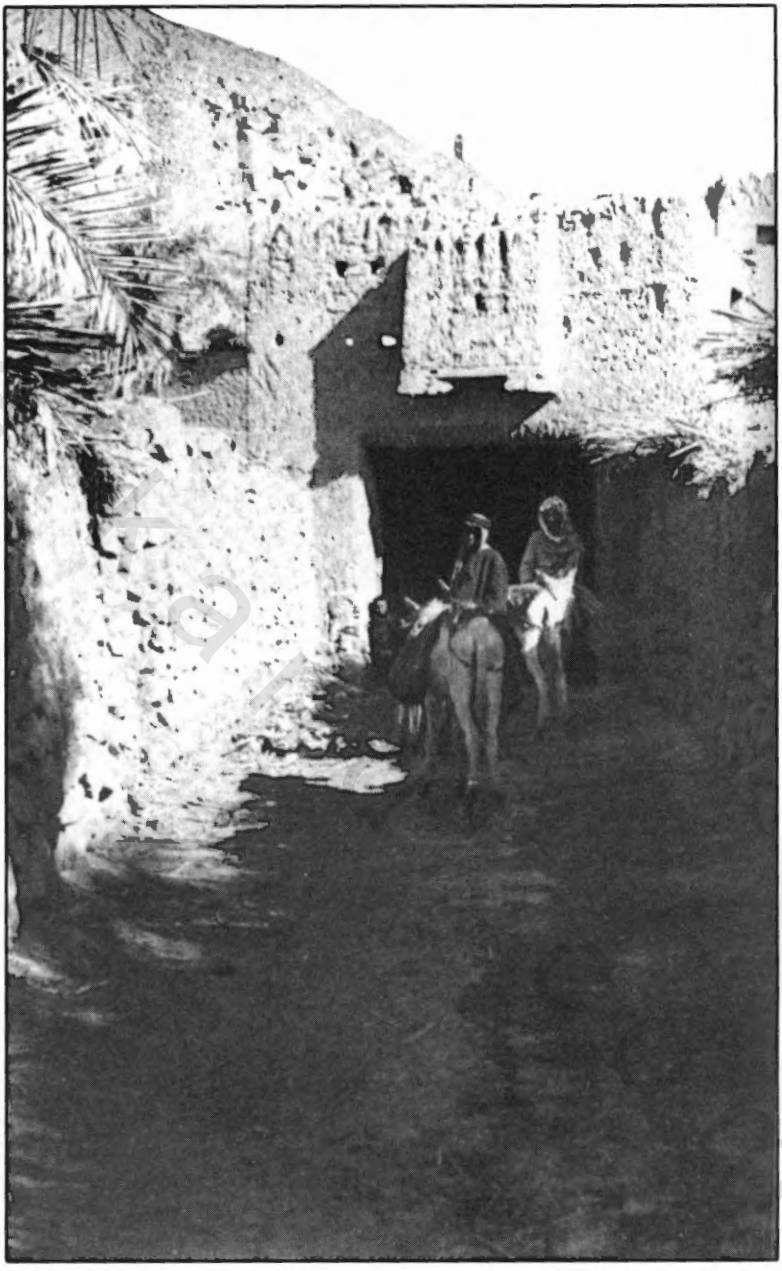

مدخل باب خوخة في خيبر

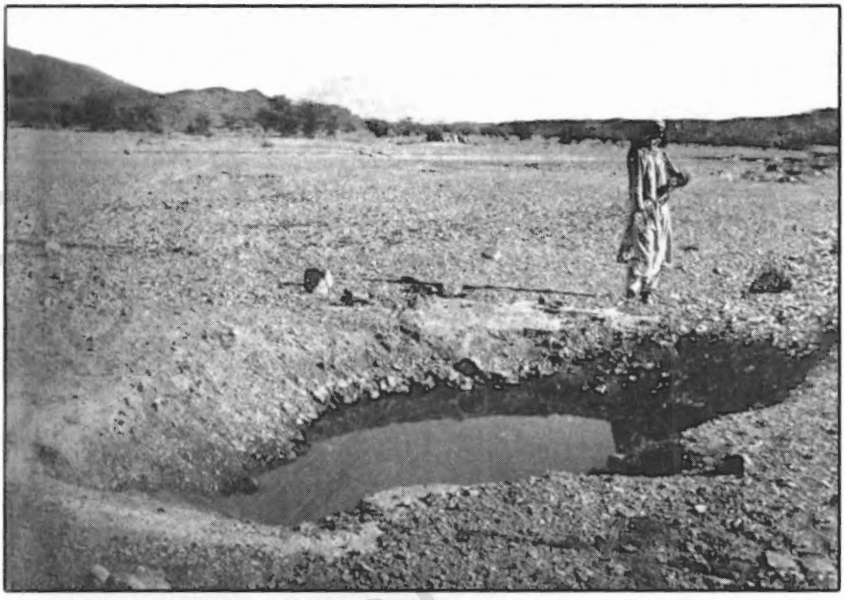

بركة في وادي غمرة في اتجاه أعلى التيار إلى رابية غمرة

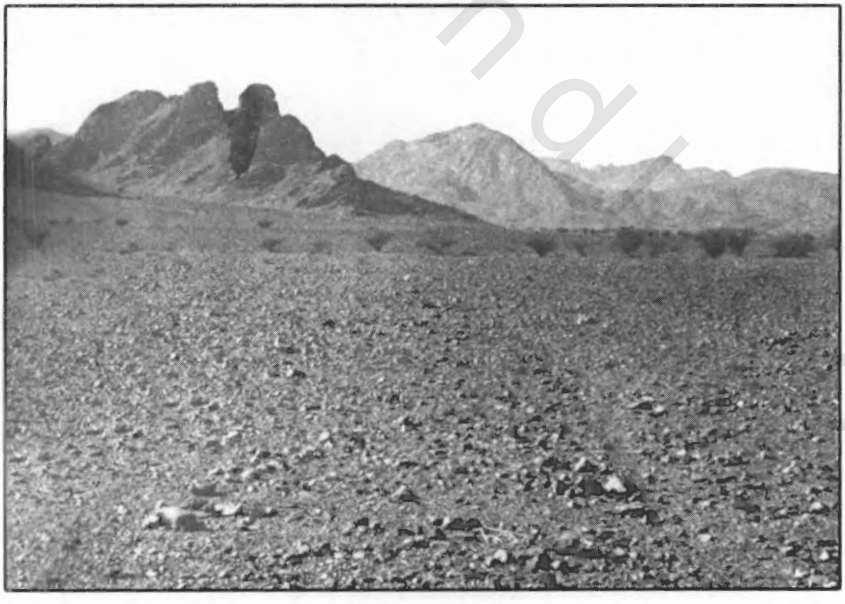

تلال المسيلخة وشقرة والطريق بينهما

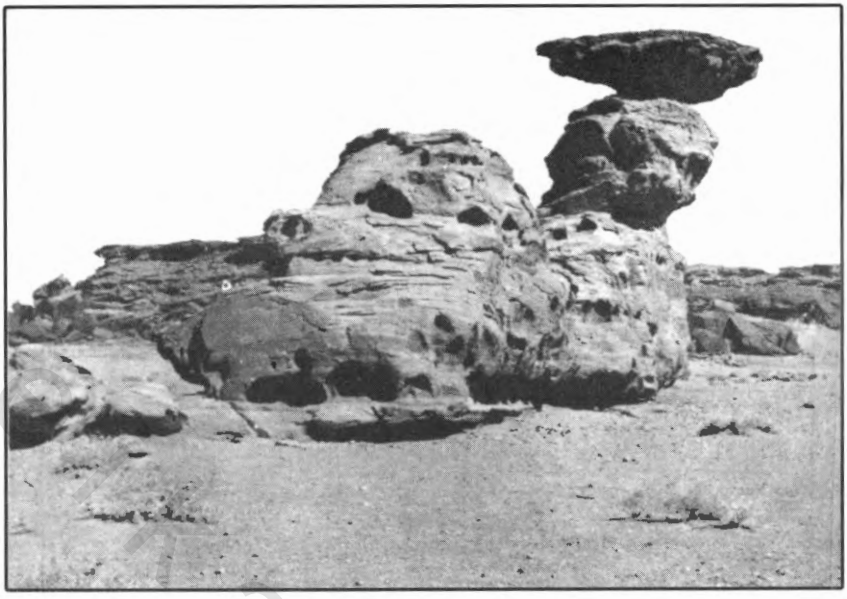

صخرة أبو الهول في المذبح

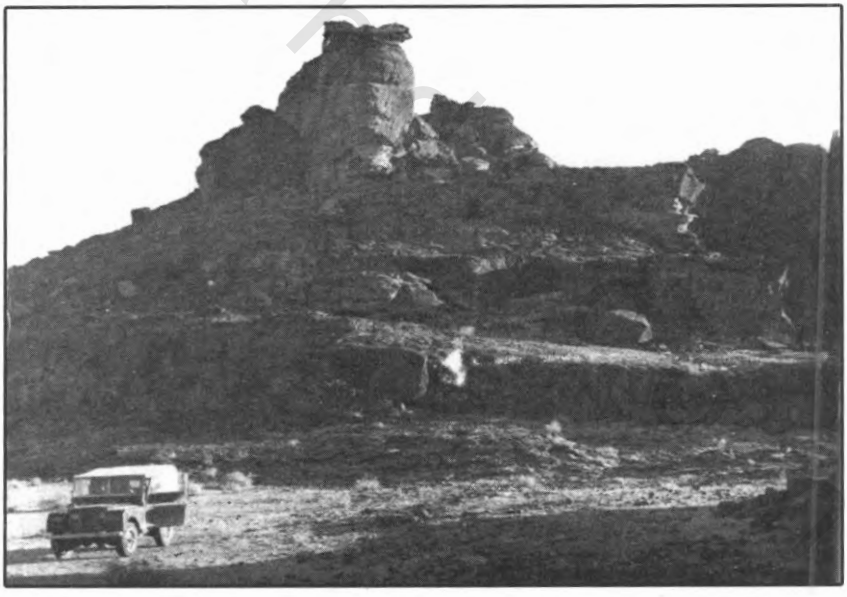

كتل من الحجر الرملي في المذبح

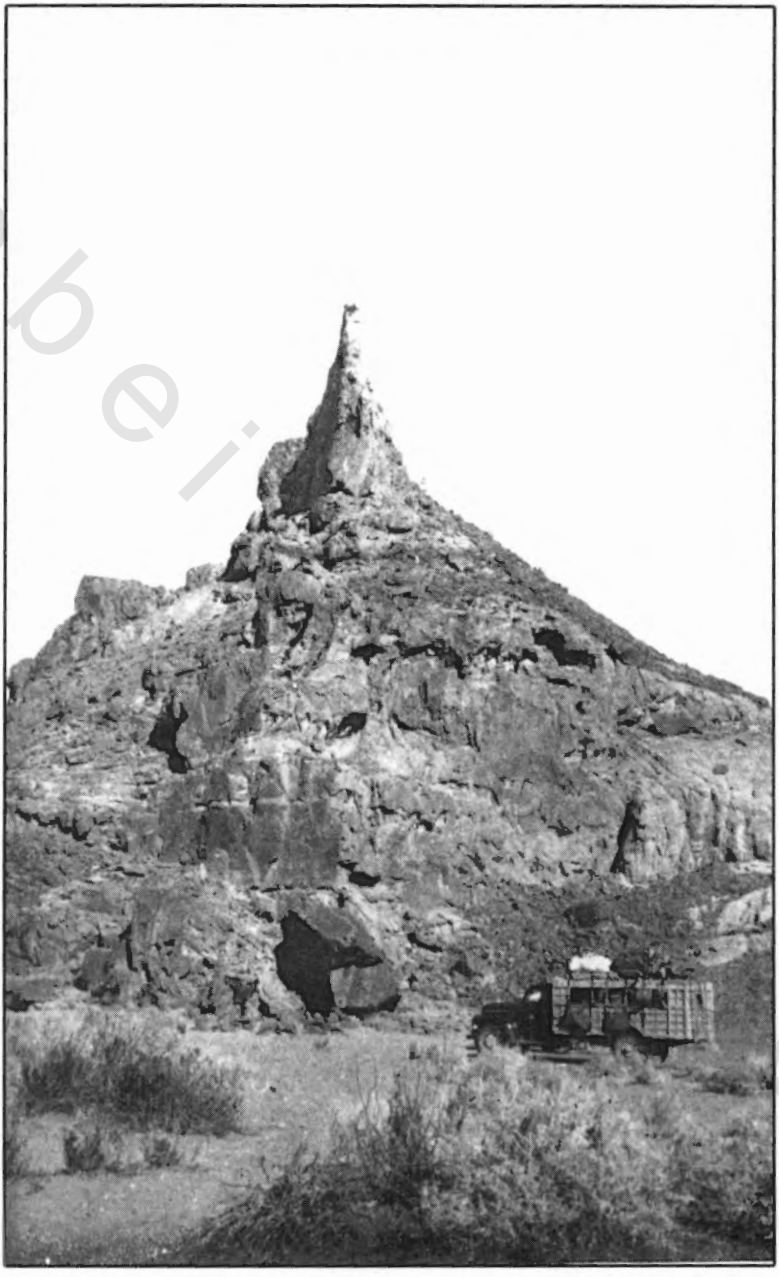

قمة الحجر الرملي في المذبح

الوصول إلى تيماء

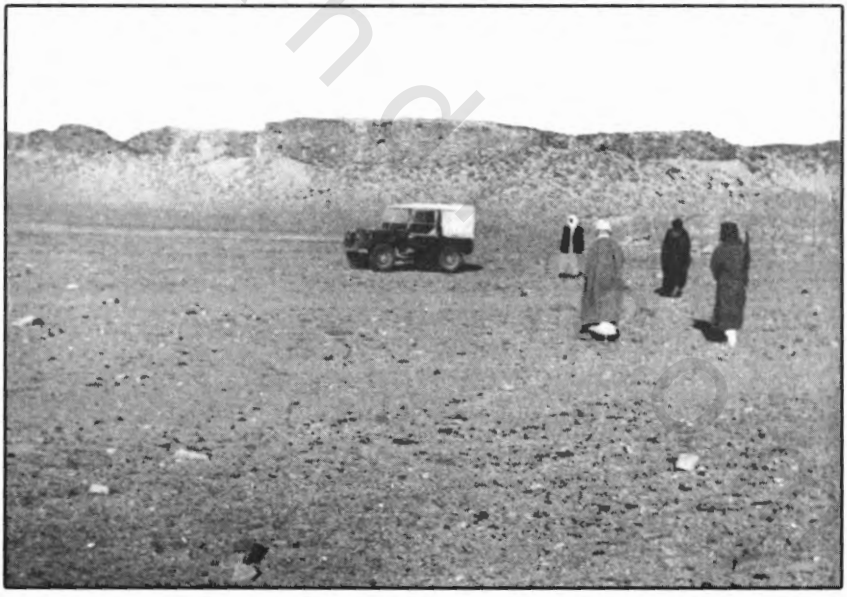

سور تيماء

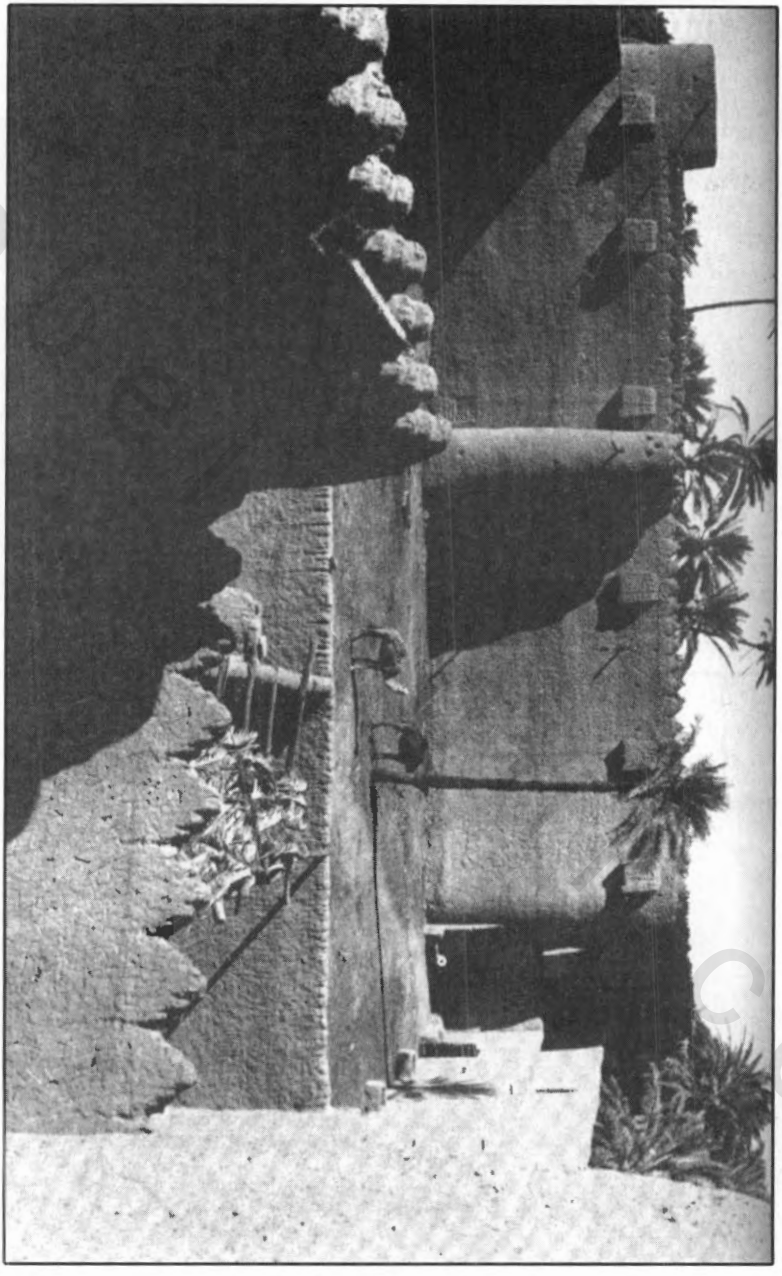

قصر (حصن) ابن رومان في تيماء

قرية تيماء الرئيسة من جهة الحصن

بئر هدّاج والقلعة الطينية القديمة في تيماء